مفهوم العمل في الإسلام

حسين بن عبدالله بانبيله



العدد السادس والخمسون ـ شعبان ١٤٢٢هـ / نوفمبر ٢٠٠١م

مفهوم العمل في الإسلام

حسين بن عبدالله بانبيلة

المجلة العربية

ثقافية - اجتماعية - جامعة

تصدر في المملكة العربية السعودية

رئيس التحرير :

حمـــد بن عبـــدالله القاضـــي

هاتف ٤٧٧٩٧٩٢

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

مقسم ٤٧٧٨٩٩٠ - ناسوخ: ٤٧٦٦٤٦٤

ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢

عنوان «المجلة العربية» على الإنترنت:

WWW.ArabicMagazine.com.

لمراسلة «المجلة العربية» على الإنترنت:

hnfo@arabicmagazine.com.

الكاتب في سطور

* حسين بن عبدالله بانبيلة

* من مواليد مكة المكرمة عام ١٣٦٠هـ.

* المؤهلات العلمية:

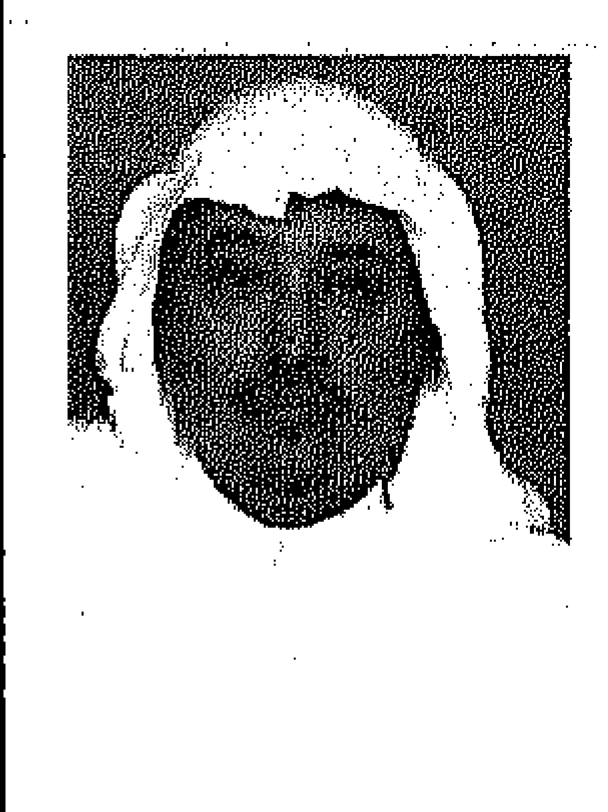
- بكالوريوس في الجغرافيا و التربية من كلية التربية بمكة المكرمة .

- ماجستير في التربية من جامعة أم القرى عام ١٤٠٨هـ .

- تحت الإعداد أطروحته للدكتوراه قسم التربية؛ كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض؛ وعنوانها: (أصول التربية الوقائية للطفولة في الإسلام).

الخبرات الوظيفية :

- مدرس لمادة التاريخ بمتوسطة الزاهر و ثانوية مكة المكرمة ثم تولى إدارة عدد من المدارس بمنطقة مكة المكرمة.



* المؤلفات المطبوعة:

١) محمد بن عبدالوهاب - قلب ورأي سليم - ، مطابع قريش، مكة المكرمة، ١٣٨٤هـ.

٢) ابن خلدون وتراثه التربوي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ

٣) المثالي في الإملاء – الجزء الثالث- مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ (موافق لمنهج الوزارة للصف الثالث الابتدائي).

٤) الإرشاد الأكاديمي في التعليم الثانوي المطور -أهدافه، أنواعه، ووسائله- مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.

٥) الغزو الثقافي الأجنبي للأمة العربية – ماضيه وحاضره- الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، ١٤١٠هـ (فاز بالجائزة الأولى في مسابقة الرئاسة، ونشرته الرئاسة) وغيرها من الكتب تحت الطبع .

- قام بترجمة جزء كبير من فهارس المخطوطات العربية بمكتبة (تشستربيني)- بايرلندا- التي وضعها المستشرق (آرثر جفري)، ونُشرت في (ملحق ألوان من التراث) الذي تصدره جريدة المدينة، بجدة.

- وقدم مامجموعه (١٠٥) حلقة من برنامج (التربية والقدوة) في إذاعة (القرآن الكريم) من الرياض، المملكة العربية السعودية.

.. وفي البدء كلمة

الأخلاق في الدين الإسلامي جزء من الشريعة؛ فهي قيم ثابتة وليست مجرد تقاليد أو عادات متغيرة، وهي بهذا ليست منفصلة أو مستقلة عن بعضها أو أن بعضها يتحرك في اتجاه مختلف عن الآخر، بل تتمثل منظومة كاملة مترابطة، بحيث تخضع لجميع مناحي الحياة لما يصدر عنها؛ سواء أكانت في الأدب أو العلم؛ في التربية أو في السياسة؛ في الاقتصاد أو في الاجتماع؛ فهي تسعى إلي المفهوم الجامع بين القيم. وما يصدر عنها هو تصور جامع قوامه: التوحيد الخالص؛ والإيمان الكامل بأن الشريعة الإسلامية منهاج كامل للحياة، تتحقق به سعادة الدارين.

وإذا كانت التربية الإسلامية تسعى بكل ما تستطيعه من جهود لغرس هذه القيم بكل الطرق والوسائل والأساليب المتاحة لها، فإننا نجد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - استطاع أن يغرس هذه القيم الإسلامية في نفوس أصحابه ذلك الجيل الفريد.

كما أن تحرير المجتمع الإسلامي من كافة ألوان التبعية، والتصدي- بحزم وشدة- لكل العوامل التي تحط من قدر الإنسان وكرامته، وتخليصه منها، وخصوصاً تلك الازدواجية والثنائيات والتناقضات القائمة في المجتمع الإسلامي حالياً مثل:

بعض مظاهر الكذب، الغيبة، النميمة، الخيانة، الغش... إلخ، فهذه لايتم ولا يتحقق التخلص منها إلا بإيجاد التربية الإسلامية ودورها الفاعل في توجيه المجتمع وكافة أفراده.

المؤلف

العقيدة أولاً

القيم الإسلامية قيم إنسانية فاضلة في كل بيئة ومكان، أما أشكالها وصورها فهي كثيرة متنوعة، بحسب القدرات والمعطيات الموجودة بها؛ وفقاً لميزان الله وشرعه الثابت.

لذلك جمعها الإسلام في تصورٍ واحدٍ قوامه التوحيد الخالص، والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي، وأكد العمل على ترسيخ القيم الإسلامية في نفوس الناشئة المسلمة، مثل:

قيم العمل والإنتاج، الصبر، واستقلالية التفكير، وموضوعية السلوك والتصرف وواقعيته، ومن ثم نبذ الاتكالية التي ترتبت عليها مظاهر البطالة التي شاعت في أرجاء المجتمع المسلم اليوم، وطالب القائمين على تنشئة وتربية الشباب والناشئة المسلمة مراعاة الأمور التالية:

أ- الانتباه إلى أثر الإيمان بالله -سبحانه وتعالى- في تربية الضمير لدى الأجيال المقبلة، والذي يؤدي دوراً كبيراً في سلوك الفرد وتصرفاته، ومن ثم في سلوك وتصرفات الجماعة.

ب- عند وضع البرامج والمناهج التعليمية؛ فإن على المسؤولين عنها أن يهتموا بمستوى هذه البرامج؛ بحيث تربط سلوك الطالب

بعقيدته الإسلامية؛ حتى يشبّ الناشىء على وحدانية الله -عز وجل-؛ وهذا يقتضي أن تكون العقيدة أساساً لهذه البرامج والمناهج.

ج- أن يكون المربون قدوة صالحة لأبنائهم الطلاب؛ في سلوكهم حتى يقتدوا بهم، وعلى المربين أنفسهم أن يضعوا تقوى الله - سبحانه وتعالى - بين أعينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

د- أن يتخلص المجتمع الإسلامي من التناقضات الموجودة فيه بحيث لايفتح الطالب عينيه فيجد في مجتمعه ما يحرمه الدين؛ مثل: بعض سلوكيات الأفراد، سواء أكان ذلك في العمل أو البيت: كالكذب، والغش، والنميمة، والاحتكار والربا والغيبة... إلخ.

هـ- العناية بتدريب الناشئة أثناء العطلة الصيفية في المعامل والمصانع، وإشراكهم في عمليات التصنيع والإنتاج والإشراف الصناعي حتى يأخذوا قسطهم من التدريب العملي الواقعي.

لذلك فإننا نستطيع أن نقول إن تنمية الموارد البشرية تحتاج إلى جهود متخصصة في ميادين العلم والمعرفة واكتساب المهارات اللازمة، فإن الاهتمام بالتعليم والتخصص بات من الأمور التي تشغل حيزاً عريضاً من تفكير المسؤولين عن تطوير وترقية المجتمعات، وذلك بتهيئة «الكوادر» المتخصصة والفنية واللازمة

لاستغلال خيرات الأرض؛ التي لاتزال معظمها مطمورة تحت الرمال، أو في جوف البحار، أو في آفاق السماء.

إن تنمية الموارد البشرية ينبغي أن يراعى فيها احتياجات المجتمع من حيث الاختصاصات والمهارات وتنمية القدرات والكفاءات البشرية من جميع جوانبها، وأن نُعبّئ كل الإمكانات والجهود لتشارك في ذلك.

إن ذلك يجعلنا نؤكد أن العمل على تنمية الموارد البشرية يمثل مصدراً من مصادر تحريك وصقل وصياغة القدرات والكفاءات البشرية، لتصبح وسيلة من وسائل وأساليب الأداء الأمثل في العمل والإنتاج، وذلك يعني إضافة خبرات ومهارات تساعد الإنسان على صقل قدراته ومهاراته الفعلية واليدوية؛ مما يؤدي إلى إعادة تشكيل سلوكه وتصرفاته ونظرته للحياة.

وإذا كانت التربية في حد ذاتها عنصراً من عناصر قيام المجتمعات تمتد جذورها إلى أعماق طويلة في التاريخ، فإنها تسعى إلى تربية أبناء المجتمع تربية متوافقة مع الواقع الأيدلوجي «العقدي» للمجتمع، فهي بذلك «عملية مستمرة مدى الحياة؛ إذ تبدأ مع الإنسان طفلاً، يتشرب القيم والاتجاهات والتصورات من والديه، ثم ينمو الطفل، ويحتك بالأقارب والجيران، فتزيد دائرة احتكاكه،

ثم يذهب إلى المدرسة؛ فتتسع الدائرة أكثر، وتستمر التنمية «الأيديولوجية»؛ حيث تصقل تلك القيم والاتجاهات والتصورات وتتبلور» [1].

ولقد أشار الإسلام إلى دور التربية في تعديل السلوك البشري؛ نستشف ذلك من خلال قول المصطفى -صلى الله عليه وسلم- (كل مولود يولد على الفطرة؛ حتى يُعرب لسانُه؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه) [2].

قيمة الاستخلاف في الأرض

من هذا المنطلق؛ سعى الدين الإسلامي إلى تثبيت قيمةٍ من أهم القيم الإسلامية في نفوس الناشئة والشباب؛ ألا وهي أن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض؛ والذي يجب أن يكون على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وأن مجال هذا الاستخلاف الكون كله، والإنسان، والحياة بكل مستلزماتها وشؤونها وشجونها، وما فتح الله -سبحانه وتعالى- به على الإنسان، وأن على المسلم أن يعرف الغاية من خلقه، وأن يتعرف على مقصود العبادة في الإسلام، وأنها لا تعني بحالٍ من الأحوال قصرها على

أداء الفروض المكتوبة فقط؛ وإنما يتعدّى ذلك إلى العلم النافع، ومن ثم الحرص عليه، والعمل الصالح والدؤوب والسعي له.

لذلك نجد التربية الإسلامية تسعى إلى تربية أبنائها تربية قد تختلف -أو تتوافق في بعض جوانبها وأهدافها- مع أنواع التربية التي سادت المجتمعات قبله أو بعده؛ فشقت لنفسها بذلك مسلكاً متميزاً عن غيرها؛ لتسهم بدورها في بناء مجتمع متفرد متميز، وهي في مسيرتها الطويلة سعت جاهدة لإخراج الإنسان المؤمن الصالح السوي القوي السليم المحصن الواعي الذي يتحمل مسؤولياته ويدرك دوره في الحياة؛ فيؤدي دوره التنموي في المجتمع الذي يعيش فيه، ويتفاعل معه وبه ومن خلاله.

ومن هذا المنطلق الجامع؛ الذي وسع مفهوم التربية ودورها في بناء المجتمعات؛ والتي تسعى إلى إحداث التغيرات المرغوب فيها في سلوك وتصرفات أفراد المجتمع، ومن ثم في بناء حياة أفراده.

إن الدور العريض والواسع للتربية، ودورها البارز في بناء المجتمع المسلم الذي تسوده القيم والمبادىء والمثل والأخلاق الإنسانية الفاضلة؛ فتُحترم فيه حقوق الأفراد، وتتكافأ فيه الفرص لجميع أبنائه. ويُعمل فيه على بناء الإنسان الصالح السوي القوي السليم المحصن الواعي الذي يتحمل مسؤولياته ويدرك دوره في

الحياة؛ يتشبع بروح الإسلام وقيمه، ثم يبدأ في تطبيق ذلك في حياته وسلوكه وتصرفاته وعلاقاته مع الأفراد الذين يعيشون معه، ويسعى من خلال ذلك إلى إبراز القيم الإسلامية؛ وأنها هي الاختيار الصحيح السليم؛ كونها منهجاً إنسانياً حياتياً متطوراً؛ وأنها هى البديل الحضاري الأمثل الذي يجب أن يرث ما يدور اليوم في الساحة من مبادىء وقيم ومُثل تهضم الحقوق، وتهمّش الحريات، وتقضي ـ في كثيرٍ من التصرفات والسلوكيات– على الإنسان من حيث لا يدري.

إن أهم ما تشكو منه معظم أنظمة التربية والتعليم في العالم الإسلامي اليوم؛ انفصال ناتج التعليم الرسمي عن مطالب سوق العمل؛ وذلك لغياب التنسيق بين التخطيط للتعليم والقوى العاملة؛ وبين ما تطلبه سوق العمل لمشروعات التنمية والتطوير.

وقد ظهرت –للاسف الشديد– في الآونة الأخيرة فلسفات ونظريات تربوية أعادت للأذهان ما كان منتشراً من أخطاء تربوية قبل بزوغ فجر الإسلام؛ حيث إن تلك الفلسفات والنظريات تحتقر العمل اليدوي، وتضع من الحواجز والفواصل بين فئات المجتمع وأفراده على أساس ما يقوم به الإنسان من عمل وكسب؛ وسبب ذلك ومرده انحسار الرؤية الإسلامية لدور الإنسان في

الكون بوصفه مستخلف يسعى بكل جهده لإعمار الأرض وفق منهج الله - جل وعلا-.

قنوات التربية

إن دور التربية الإسلامية يجب أن يرسخ هذا المفهوم وما يرتبط منه بقيمة العمل وأدائه؛ وذلك للعمل على طرح الفكرة القديمة المناوئة للعمل اليدوي، وإحلال قيم الإسلام ومبادئه نحو العمل وإثرائه وتجويده وتحسينه، وهذا بطبيعة الحال لن يتأتى إلا إذا سلكت التربية فى أداء دورها عن طريق القنوات التالية:

أ- الإيمان بقيمة الإنسان، وتأكيد أهميته، وكرامته ودوره المتميز في إعمار الأرض، واحترام آدميته، بصرف النظر عن جنسه ولونه ومركزه الاجتماعي أو الاقتصادي.

ب- الاعتراف بأن الإنسان أداة التنمية وغايتها على السواء؛ إذ بدوره المفعّل والفاعل يصنع التقدم ويواجه التحديات.

ج- الإيمان بأن للفرد حقوقاً أساسية يجب صيانتها واحترامها وعدم المساس بها، وأن أهم هذه الحقوق حقه في الحياة الذي يعد أسمى هذه الحقوق جميعها وأساسها، ومنها حقه في التعليم والتدريب والعمل، وحقه في الفرص المتكافئة المتاحة له مع غيره.

د- الإيمان بضرورة النظر إلى الإنسان على أنه غاية في حد ذاته وليس وسيلة لتحقيق غايات وأهداف لاتمت للإنسانية بصلة.

هـ- الإيمان بالفروق الفردية بين الناس، وبأن هذه الفروق يمكن أن تكون مصدر تقدم ورخاء وازدهار لكل من الفرد والمجتمع إذا ما أحسن توجيهها والاستفادة منها.

و- الإيمان بقيمة التعليم والتدريب في تقدم المجتمع ونهضته وزيادة الوعي فيه؛ لإحداث التغيير المرغوب؛ وذلك لتلبية احتياجات المجتمع من الطاقات البشرية المتعلمة المدربة، وفي إعداد أفراده لأداء أدوارهم ومسؤولياتهم.

ز- الإيمان بضرورة إعطاء أهمية خاصة للتعليم الفني والتقني؛ وذلك لصلته المباشرة بالتنمية الاقتصادية الحديثة التي تعتمد على المعطيات التقنية الحديثة، سواء في مجال الصناعة أو الزراعة أو غيرهما من مجالات وميادين التنمية، وفائدته الكبرى في تحسين مستوى المعيشة ونوعية الحياة في المجتمع، وفي تدريب القوى العاملة والكوادر الفنية التي تحتاج إليها عمليات التنمية بكل أنواعها وشتى مجالاتها للإسهام في تطوير المجتمع، وفي زيادة إنتاجية المنتجين ومن ثم العمل على تقليل نسبة البطالة المبطنة أو الواضحة، والتخلص أو التخفيف على الأقل من العمالة الأجنبية

في المجتمع المسلم.

ونحن إذا آمنا بأن «التربية الصالحة لا تقوم في فراغ ولاتنعزل عن الواقع الثقافي والاجتماعي، ولا تهرب عنه، وإنما ترتبط بالواقع وتتشكل وتتماثل مع الثقافة التي تعيش فيها، ومع النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تسود المجتمع، ولا تكتفي بالتكيف مع ما يجري فيه، بل تحاول أن تقوم بدور القائد والرائد والموجه الناقد له» [٣] فإننا نؤمن أيضاً بأن هذه التربية يجب أن تفتح ذراعيها لجميع التجارب الإنسانية الصالحة؛ حيث جاء في الأثر أن (الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها فهو أحق بها)[٤].

إن ذلك يستلزم منا أن نسرع الخطى بإعطاء أهمية خاصة للتعليم الفني والتقني، وإزاحة الغمام من حوله، وتوفيره -بكل أنواعه- لانخراط الناشئة فيه، بعد قناعتهم بجدواه وفاعليته في تحسين نوعية الحياة التي يعيشونها، وكذا رفع مستوياتهم العلمية والعملية والتربوية.

إن ذلك يعني أن نهتم بالطاقات البشرية؛ وذلك بإعدادها الإعداد العلمي والتقني والتربوي، وفق قدرات واستعدادات وميول الناشئة والشباب أنفسهم أولاً حسب احتياجات المجتمع لتلك

الطاقات، ليكونوا بحق أعظم استثمار للأمة، وهذا بالتالي سيحرك سائر الاستثمارات الأخرى في المجتمع نحو الأفضل والأحسن، لتأمين الأعداد اللازمة والكافية من أبناء الأمة المتخصصة في كل فرع للمعرفة والعلم والثقافة، وأن تشمل تخصصاتهم أدق التفاصيل في كل علم ومعرفة وفن.

لقد بنى الإسلام قيمه على أسس عقدية تضع الموازين وتقرر القيم، كما أنها تقرر السلطة التي تستند إليها هذه الموازين وتلك القيم، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة؛ لتوقعه على المخالفين، وتثيب الملتزمين.

وحينما تكون آصرة المجتمع هي التي تربط بين أبنائه عقيدتهم الصادرة من إلهٍ واحد؛ فهي ليست صادرة عن أهواء بشرية تتمثل فيها عبودية الإنسان للإنسان؛ حينما تكون هذه الآصرة إلهية المصدر؛ ربانية التلقي؛ تكون ممثلة لأعلى ما في الإنسان من خصائص الفكر والروح.

إن قيم الدين الإسلامي قيمٌ ثوابت في الحياة الإنسانية؛ لاتتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والناس والأمزجة.

أما المتغيرات في الحياة الإنسانية وفق المنهج الرباني؛ فهي الأساليب والطرق والوسائل التي يتوصل الناس بها إلى تلك

الثوابت من القيم.

ولقد تميزت القيمُ الإسلامية بالطابع الإنساني البعيد عن العنصرية والاستعلاء بالدم؛ أو اللون؛ أو الجنس؛ متسمة في ذلك بروح الإخاء البشري؛ و مفهوم الرحمة والكرامة والثقة المتبادلة.

لذلك كانت القيم في الشريعة الإسلامية غير التقاليد المتغيرة؛ فقاعدة الأخلاق الأساسية في الإسلام هي أن الحق واحد، والخير واحد، وأنهما لايختلفان ولا يتعددان؛ لأن مصدرهما واحدٌ هو الوحي الإلهي.

القيم والاتجاهات

ولقد ظهرت بعض الصعوبات في التفريق بين القيم والاتجاهات؛ ولعل مردّ ذلك إلى التداخل بين مفهوم الاتجاه ومفهوم القيمة؛ وعدم القدرة على التمييز المطلق بين هذين المفهومين، لذلك نرى أن نورد بعض الخصائص التي تميّز القيمة عن الاتجاه؛ لإيضاح مفهوم القيمة على نحوٍ أفضل.

وفيما يلي بعض أهم هذه الخصائص:

١- أن القيم أكثر عمومية وتجريداً وشمولاً من الاتجاهات؛ فتلك

لاتحدد بموضوعاتها على نحوٍ مباشر؛ بل تُحدد بمُثل مجرد؛ تتجاوز الأوضاع أو الحالات الجزئية؛ فموقف الفرد من علم الفيزياء مثلاً؛ يحدد «اتجاهه» نحو موضوعات هذا العام بالذات، أما موقفه من العلم وأثره في تطوير الحياة المجتمعية؛ فيحدد «القيمة» العلمية التي يتبناها الفرد.

٢- أن القيم أكثر ثباتاً من الاتجاهات؛ وأقل قابلية للتغير منها، وقد يعود ذلك إلى أن مستوى عقيدة الفرد بقيمه أعلى من مستوى عقيدته باتجاهاته؛ وإلى كون القيم أكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع.

٣- تنطوي القيم عادةً على جانبٍ تفضيلي وأخلاقي، في حين يمكن أن تكون الاتجاهات سلبية، لذلك فإن أغلب الباحثين يتناولون مسألة القيم من خلال بحثهم في السلوك الأخلاقي.

إن السلوك الأخلاقي يجب أن ينطوي على مجموعة قواعد ينبغي تبنيها واستخدامها معاييراً ثابتة لتقويم أفعال الناس -في ذلك المجتمع- وتصرفاتهم؛ ومن ثم الحكم عليها بأنها (حق) أو (باطل)؛ وهذا ما يجعلها ذات أهمية خصوصاً لدى الناس؛ مما يشير إلى حيويتها وأهميتها في حياتهم؛ وذلك ما يبرر اهتمام المؤسسات ذات الصبغة التربوية بها؛ فتستخدم في توجيه السلوك

الأخلاقي.

ولما كانت المؤسسات التربوية والتعليمية المختلفة -والمدرسة واحدة منها- مسؤولة مسؤولية مباشرة عن غرس هذه القيم في نفوس الناشئة؛ للالتزام بها أثناء النشاط اليومي الذي يمارسه الطلاب؛ إذ يمكن عن طريقها اكسابهم هذه القيم مثل حب النظام، والانضباط والطاعة والصدق والتعاون والإيثار، وذلك عن طريق الأنشطة المدرسية اليومية المختلفة. فالتزام الطلاب بمواعيد الدراسة والدروس؛ والجلوس في أمكنة محددة؛ وهذا يؤكد المقولة التي تشير إلى أن التربية ما هي إلا عملية نقل وتلقين للقيم والمعايير المتفق عليها للناشئة.

ولعله قد أصبح من الأمور البدهية في هذا العصر الذي أصبحت سمته الأساسية «الديناميكية» والفعالية المعرفية، وأصبحت التربية والعمل من أهم محاور وروافد التنمية الشاملة بكل ركائزها ومضامينها وتوجيهاتها الأساسية؛ فالتربية هي الوسيلة الأساسية الفعّالة في تشكيل شخصية الفرد، ومن ثمّ بعث الروح في إمكاناته واستعداداته؛ لإخراج وإبراز هذه الإمكانات والاستعدادات إلى حيز الوجود والواقع، والعمل على تنميته وفق المهارات والمعارف والاتجاهات التي يرغبها أصحاب القرار في المجتمع،

ومساعدته على تحقيق دوره ومكانته إنساناً مؤمناً صالحاً قوياً سليماً سوياً محصناً وأعياً متحملاً مسؤولياته؛ ليؤدي دوره في البيئة التي يعيش فيها، ويتعامل معها ومن خلالها.

إن التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر لايمكن فصله وفصمه عن التخلف العام الذي تعاني منه هذه الأمة؛ فهو نتيجة ضعف العلم والاهتمام بجديته، لأن أهداف التعليم في كثير من البلدان الإسلامية اليوم لا تختلف عن الأهداف المرسومة والمعمول بها في مناهج أي دولة غربية أو شرقية؛ لأننا -للأسف الشديد- نستمدها ونقلدها دون تهذيب أو إصلاح.

«إن قيمة البلاد لا تُقاس بكثرة الجامعات والمعاهد وإنما بكثرة أبنائها الذين يقفون حياتهم للبحث والدراسة، ونشر العلم والثقافة، وتثقيف أفراد الأمة، ورفع معنوياتهم حتى تكون أمة ذات قلبٍ، وضمير أبي.

«إن قيمة البلد تقاس بالشباب الذين يتفرغون للعمل الجاد البناء، الايجابي النافع، والبحث المضني المتصل الذي يتطلب صبراً في سبيل الوصول إلى نظرية علمية ذات أهمية؛ بعيداً عن لذائذ الحياة الرخيصة والمناصب والجاه، والتقدم الشخصي، ومحاولة إبراز الجانب الشخصي على حساب الجوانب الأخرى»(٥).

من هذا المنطلق يظهر لنا أن العلاقة بين التربية والمجتمع هي علاقة ديناميكية (متحركة) ذات تأثير وتأثر؛ فهي تغير المجتمع وتتغيّر به؛ إذ إنها لا تنشأ من فراغ، ولاتعمل بمعزل عن الواقع، فكل مجتمع جدير، بالتربية التي يفرزها، فالفلسفة التربوية هي إحدى تجليات الفلسفة الاجتماعية السائدة، وتنمية الموارد- سواء البشرية أو المادية- هي الصياغة التربوية للتنمية الاجتماعية الشاملة، ولن تؤدي التربية ثمارها المرجوة منها ما دامت غير متسقة مع بيئة مجتمعها والممارسات الفعلية التي تجري بداخله.

«إن وعينا بدروس الماضي؛ والدور الخطير الذي ستؤديه التربية في عصر المعلومات يزيد من قناعاتنا بأن التربية هي المشكلة وهي الحل، فإن عجزت أن تصنع بشراً قادراً على مواجهة التحديات المتوقعة؛ فمآل كل جهود التنمية إلى الفشل المحتوم مهما توافرت الموارد الطبيعية والمادية»[٦].

من هنا أصبحت النظرة إلي التربية على أنها عملية ذات محور فردي واجتماعي -في آن واحد- تسعى إلى إحداث التغيير المرغوب فيه في سلوك الفرد وفي بناء حياة المجتمع، وأصبحت النظرة إلى التربية أيضاً على أنها عملية استثمارية تساعد على تنمية الموارد البشرية التي تعد العنصر الأساس والحاسم في

تنمية المجتمع حضارياً واقتصادياً وفي زيادة الطاقة الإنتاجية فيه؛ في زمنٍ أصبح يحكمه الاقتصاد إلى مدى كبير.

هذا يظهر لنا «أن النقلة المجتمعية الي ستحدثها تقنية المعلومات؛ ماهي في جوهرها إلاّ نقلة تربوية في المقام الأول، فعندما تتوارى أهمية الموارد الطبيعية والمادية، وتبرز المعرفة كأهم مصادر القوة الاجتماعية تصبح عملية تنمية الموارد البشرية- التي تنتج هذه المعرفة وتوظفها- هي العامل الحاسم في تحديد قدر المجتمعات. وهكذا تداخلت التنمية والتربية إلى حدٍ يصل إلى شبه الترادف، وأصبح الاستثمار في مجال التربية هو أكثر الاستثمارات عائداً، بعد أن تبوأت صناعة البشر قمة الهرم بصفتها أهم صناعات عصر المعلومات على الإطلاق، لقد أدرك الجميع أن مصير الأمم هو رهن بإبداع البشر، ومدى تحديه واستجابتها لمشكلات التغيير ومطالبه».

فمهمة العلم في مفهوم التحضر الإسلامي؛ ليس الصراع مع الطبيعة أو قهرها أو الانتصار عليها؛ بل إنه التفاعل معها؛ ومن ثم العمل والجد والاجتهاد في اكتشاف سُنن الله جل وعلا فيها للاستفادة مما أودع الله في جوانبها من خيرات.

فلعلنا بعد هذا التطواف نستطيع أن نقول إن الإسلام عندما حرص على دفع المسلمين إلى العمل؛ إنما كان هدفه تحقيق غايات ثلاث هي:

الأولى: غرس عزة النفس لدى المسلمين؛ إذ إن العمل وسيلة الكسب الشريف والوصول إلى ذلك لايكون إلاّ بالسعي والعمل. فكان تحذير المصطفى -صلى الله عليه وسلم- من الكسل والتعطل والبطالة واتخاذ المسألة طريقاً لكسب العيش محل مقته؛ حينما قال -صلى الله عليه وسلم- (مايزال الرجل يسأل الناس، حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعة لحم)(٧) وقوله -صلى الله عليه وسلم- (مافتح رجلٌ باب مسألة، يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة)(٨).

إن اعتناء النفس المسلمة بالعمل لا يحفظ لها عزتها من الهوان وحسب؛ بل إنه أيضاً يحفظها من الوقوع في الحرام الذي يؤدي إليه ما يشعر به المسلم من الجوع والحرمان؛ فالجوع سبب رئيس في الانحراف والشذوذ؛ إذ تظل الحاجة تضغط على الإنسان حتى تدفعه إلى شَرَك المحرمات.

الثانية: بناء المجتمع المسلم القوي السليم السوي؛ إذ الإسلام يهدف إلى إيجاد مجتمع إسلامي غني قوي بنفسه وبما فيه من إمكانات وموارد؛ فهو يلزم أفراد المجتمع المسلم بالقيم التي يحتاجون إليها في مجتمعهم من أعمال وخدمات، بل وأكثر من ذلك يجعلهم مسؤولين عن تقديم كل ما يحتاج إليه المجتمع المسلم في سائر العلوم والصناعات.

إن عمارة الأرض؛ وهو ما نطلق عليه اليوم -التنمية- تدلنا كثير من نصوص تراثنا الإسلامي على أنه ينتقل من المسؤولية الفردية إلى اعتباره إحدى مستويات مسؤولية الدولة؛ ذلك لأنه بدون انكباب الدولة على التعمير والعمران لا تستقيم الحياة، ولا يتأتى لها حقوقها، وقيامها بواجباتها نحو مواطنيها؛ أداء للأمانة التي تحملها الإنسان.

لذلك نجد الإمام ابن تيمية -رحمه الله- يقول:[٩]

«إن هذه الأعمال التي هي فرض على الكفاية متى لم يقم بها غير الإنسان صارت فرض عين عليه، ولاسيما إن كان غيره عاجزاً عنها، فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم؛ صار هذا العمل واجباً، يجبرهم ولي الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل، ولايمكنهم من مطالبة الناس من ظلمهم بأن

يعطوهم دون حقهم، كما إذا احتاج الجند المرصودون للجهاد إلى فلاحة أرضهم، ألزم من مهنته الفلاحة بأن يؤديها، فإن الجند يُلزمهم الفلاح كما ألزم الفلاحُ لأن يفلح للجند».

وهذا الأمر لم يغب عن المفكر الإسلامي الكبير عبدالرحمن بن خلدون فقد وضع في مقدمته الشهيرة باباً كاملاً هو الباب الخامس من الكتاب الأول بعنوان (في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال)؛ وجعل موضوع الفصل الأول منه (في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية). وقد بنى موضوعه هذا على المسلمة التي تقول:(إن الإنسان يفتقر بالطبع إلى ما يقوته وما يمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره)[١٠]؛ لذلك ظهرت الضرورة التي تدفعه إلى «اقتناء المكاسب لينفق ما أتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته». الحصول على المكاسب لا يكون إلا (بالعمل) و(الإنتاج)، ويوضح لنا ابن خلدون ذلك بقوله:«ثم أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل؛ فلابد في الرزق من سعي وعمل».

ولما كان الإنسان مضطراً لتحصيل رزقه حتى تستمر حياته؛ فإن ذلك لا يتم إلاّ (بالسعي والعمل)، والعمل يكون هدفه هذا (إنتاجياً)؛

وهذا ما يؤكده ابن خلدون حيث يقول:«لابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول؛ لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وأن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بدّ فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلاّ لم يحصل ولم يقع به انتفاع».

ويعود ابن خلدون مرة أخرى لتأكيد نظريته هذه فيقول:« وعلى قدر جودة التعليم وملكة العلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته».

الثالثة: بث روح المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي، وإيجاد رابط قوى بينهم؛ وذلك عن طريق احتياج الواحد منهم للآخر، فتتكون بينهم رابطة قوية، حيث يشعر كل واحدٍ منهم بأن عليه واجبات لهذا المجتمع، يجب عليه أداؤها وأنه إن تقاصر في أدائها فقد يؤدي ذلك إلى انهيار البناء عليه وعلى غيره من المسلمين.

علماء الإسلام والمهنة:

تاريخ الحضارة الإسلامية حافل بالرجال العظماء الذين عرفوا بصناعتهم ومهنهم التي كانوا يزاولونها- رغم أنهم كانوا من العلم في المقام السامي- ومن أولئك العلماء والفقهاء- على سبيل المثال لا الحصر:

١- القطان: (يحيى بن سعيد: ت.١٩٨هـ) حافظ للحديث ثقة حجة من أقران مالك وشعبة.

٢- الخراز:(أحمد بن الحارث:ت. ٢٥٨هـ) مؤرخ من أهل بغداد، له كتب حسان.

٣- الزجاج:(إبراهيم بن السري: ت. ٣١١هـ) عالم بالنحو واللغة، له مصنفات عديدة.

٤- السرّاج: (محمد بن إسحاق:ت. ٣١٦هـ) حافظ للحديث، ثقة، له المسند في أربعة عشر جزءاً.

٥- القفال: (محمد بن علي : ت:٣٦٥هـ) من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، له مصنفات.

٦- الباقلاني:(محمد بن الطيب: ت.٤١٣هـ) قاضي، من كبار علماء الكلام، كان جيد الاستنباط له عدد من المصنفات.

٧- النقاش:(محمد بن علي:ت.٤١٤هـ) من حفاظ الحديث، ثقة له كتاب (القضاة والشهود).

٨- الحلواني :(محمد بن محمد :ت.٥٠٥هـ) شيخ الحنابلة في عصره، له مصنفات.

٩- ابن الخشاب:(محمد بن محمد: ت.٧٧٤هـ) من شيوخ العلم في غرناطة، بلغ عدد شيوخه قرابة ٤٠٠ شيخ.

ولقد قرر علماؤنا أن العامل في كل باب من أبواب النفع العام والفائدة المرجوة التي تعود على المجتمع الإسلامي يقوم بفرض كفاية يجب تحقيقه، إذ لو تُرك كان على الجماعة كلها مغبة ووزر تركه، وكذا عليها الإثم أمام الله -سبحانه وتعالى- إذا قصرت في إقامة الغرض، فيشترك الجميع في الوزر إن هم قصّروا فيه، ويرفع الإثم عنهما جميعاً بالقيام به وتحقيقه.

إن توافر جميع أنواع النشاط البشري في المجتمع المسلم، ووجود جميع مظاهره -من زراعة أو صناعة أو تجارة- مطلب شرعي حتى ترقى أمة الإسلام إلى طليعة الأمم المتقدمة، لتكون في مقدمة الصفوف لا في مؤخرتها[11]؛ ذلك أن الله سخر هذا الكون للإنسان بما فيه، وما عليه؛ ليُمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء.

«وهذا لن يتحقق إلا إذا تغيرت النظرة الاجتماعية السلبية إلى الحرف والمهن؛ بإتاحة إعادة هيكلة (القوى العاملة) من أبناء الوطن ليأخذ العمل التقني مكانه الاجتماعي الصحيح.

وتغير تلك النظرة سوف يزيل الهدر في التعليم ويقلل من فاقده الذي نشاهد دلائله في الإقبال المتزايد على التعليم الجامعي والنظري منه على وجه الخصوص، وحتى يتجه الطلاب إلى

قنوات ومسارات أكثر فاعلية وجدوى للمجتمع كالتعليم التقني ومعاهد الحرف والمهن التطبيقية.

إن « تغيير نظرتنا الاجتماعية للعمل سوف توضح جديتنا لتعويض فترات التخلف التقني المقفر الذي قاسينا منه- ومانزال-؟!!»[١٢].

«إن العمل كنشاط نافع له جانبان: جانبه الأخلاقي وجانبه الاقتصادي فهو دفاع ضد الشر والهوى، كما أنه دفاع ضد الفقر، والعمل بهذه الصفة الثنائية ظاهرة إسلامية»[١٣].

التربية الصحيحة تدفع إلى العمل:

إن استخدام النظام التربوي لتجاوز سلبيات الواقع يكمن في ترسيخ القيم والاتجاهات الإيجابية المؤدية للعمل وللإنتاج فقيمة العمل، وجودة الإنتاج، ومحاربة النزعة الاستهلاكية المدمرة، وكذا محاربة التفاخر والتباهي من أوليات متطلبات التنمية[١٤].

وفي مجال احترام قيمة العمل، وخصوصاً العمل اليدوي، يمكن أن تعمل التربية على غرس قيم إيجابية تجاهه؛ لا من خلال المواعظ والخطب فحسب، بل من خلال جعل العمل جزءاً من حياة المدرسة اليومية، يمارسه المعلمون والتلاميذ، كما يدرسون سبله وإمكاناته في الوقت نفسه.

«إن التربية بما تزودة للإنسان من معارف ومهارات وأسس

عملية ومنطقية، وبما تعوده من طرق للتفكير والمحاكاة والتطبيق والانتفاع؛ قمينة بإيجاد الفرد القادر المبدع الذي لا تخدعه المظاهر ولاتبهره تعقيدات التكنولوجيا»[١٥].

وحتى تؤدي التربية دورها فإن المطلوب منها يتلخص في أمرين مهمين:

«أولهما : تمكين الإنسان من فهم أفضل للعلم والتقنية؛ لا عن طريق تهويل آثارها وما يمكن أن تسهم به، بل عن طريق دراسة أسسها، وميكانيكية تطويرها، ووسائل استخدامها، والانتفاع بها، فالأمر أولاً وأخيراً هو التعامل مع التقنية لا أساس الرهبة بل على أساس ما يمكن أن تسهم به، وهذا يمكّن المتعلم حقاً من معرفة أسسها المعقدة ظاهراً البسيطة فعلاً.

«الأمر الثاني: لمساهمة التربية في إيجاد القاعدة التقنية، يتمثل في دعم مراكز البحوث العلمية التطبيقية في مجالات العمل المختلفة، حتى تتمكن دول المنطقة من إحكام سيطرتها على التقنية المستوردة بل وتطويرها وتطويعها لإمكانات البلاد واحتياجاتها حتى يصل الأمر بها إلى إيجاد تقنية محلية مناسبة ومنافسة. على أن الأمر يستلزم الحذر في دعم البحوث حتى لا تتحول المسألة إلى مظاهر مثل ما حدث في استخدام التقنية المستوردة، فالبحوث

يجب أن تخضع لسياسة تنسيق وسلم أولويات لا يحدده أفراد بل هيئات ذات كفاية مؤهلة لذلك، والبحوث يجب أن تستفيد من كل الجهود القادرة في الجامعات والمؤسسات العامة والخاصة والأفراد، ولابد أن تنطلق من الحاجة وتراعي النوعية والفائدة وعدم الازدواجية[١٦].

وأخيراً :

فلقد ظهر لنا أنه من المؤكد أن الدين الإسلامي يدعو إلى العمل ويحث على السعي والاجتهاد في طلب العيش؛ وإذا كان بعض من غرر بهم لم يستطيعوا فهم فحوى ما جاء به الدين الإسلامي من تعاليم وتشريعات فإن ذلك لا يعيب الإسلام في شيء، وإنما يعيبهم هم أولاً إذ لم يثقفوا أنفسهم حول معرفة دينهم معرفة هم جديرون بها باعتبارهم مسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا وإمامنا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

الهوامش:

(١) د. عبدالغني عبود، التربية ومشكلات المجتمع، ٢٦.

(٢) الطبراني المعجم الكبير، حديث رقم ٨٢٩، وقال محققه: صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الإمام الذهبي.

- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٤٤٣٥.

(٣) د. عمر محمد التومي الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية، ٣٤-٣٥.

(٤) الإمام الترمذي، السنن، كتاب العلم عن - رسول الله صلى الله - عليه وسلم- باب ما جاء في فضل العبادة على الفقه.

(٥) د. عباس محجوب، مشكلات الشباب (الحلول المطروحة والحل الإسلامي)، ٥٣.

(٦) د. نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، ٣٨١.

(٧) الألباني، صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٥٦٩٢.

(٨) السابق، حديث رقم ٥٥٢٢.

(٩) الحسبة، ٢٨.

(١٠) ابن خلدون، المقدمة، ٣/٨٩٣ وما بعدها؛ ثم للتوسع والتفصيل في نظرية ابن خلدون (العمران البشري) وربطها بالتربية والتعليم، انظر على سبيل المثال:

- حسين عبدالله بانبيلة، ابن خلدون وتراثه التربوي دار الكاتب العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ.

- د. علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، الشركة التونسية للنشر تونس ١٩٧٧م.

- د. مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته،

الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٦هـ.

(١١) للتوسع والتفصيل انظر:

- عبدالكريم الخطيب، السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

- محمد أبو زهرة، في المجتمع الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

- د. أحمد العسّال وزميله، النظام الاقتصادي في الإسلام، -مبادئه وأهدافه-، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٠هـ.

- أبو الوفاء مصطفى المراغي، من قضايا العمل والعمال في الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٣٩٠هـ.

- د. سالم بن سعيد باعجاجة المبادئ والقيم وأثرها على أداء العمل، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٠هـ.

(١٢) د. محمود محمد سفر، ثقب في جدار التخلف، ٤٩٠.

(١٣) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام والغرب، ٣٢٢.

(١٤) د. عبدالعزيز الجلال، دور التربية في التنمية، مدخل إلى دراسة النظام التربوي في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، في مجلة: دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٣٩) السنة (١٠) ص،ص ١٣٣-١٣٩.

(١٥) السابق، ص ١٣٩ -بتصرف يسير-.

(١٦) السابق،ص ١٣٩ - بتصرف يسير-.

في الأعداد القادمة من:

[كتيب]

المجلة العربية

* نحن أمة على مستوى التحديات

د. حسن بن فهد الهويمل

* الشخصية الإسلامية و عصر المواجهات

طه محمد كسبه